صورة المرأة في الخطاب الغربي والعربي

بلجيلالي ثورية، د.بن لباد الغالي
طالبة دكتوراه
جامعة تلمسان

ملخص:
عرف موضوع المرأة تحولات وصفت بالكبيرة خصوصا عند الغرب و ذات الأمر ينطبق على العرب ، باعتبارها تابعة للرجل مما قلل من أهميتها ومكانتها في مجتمع ذكوري تحكمه الأعراف و التقاليد و تبرز فيه صورة الرجل على حساب المرأة في حين أقرت الشرائع و الديانات السماوية بعكس ذلك ، حيث تعددت الأطروحات و تنوعت إلى حد التناقض منها من حصرها في الأمومة والتعليم مع اعتراض عملها خارج البيت ،ومنهم من نظر إليها بتحرر نسبي مع بقاءها تحت وصاية الرجل، أما الحداثيون أقروا بتحررها و مساواتها مع الرجل في الحقوق والواجبات.
فمعركة المرأة اليوم ليست مساوات مع الرجل بقدر ما هي تطالب بإشراكها في عملية التنمية الشاملة فظهرت تيارات لمناصرة المرأة وتمثيلها في المحافل الدولية والسؤال الذي يطرح نفسه: هل حققت المرأة مشروعها ضد الإظطهاد والعنف أم بقيت إشكاليتها مجرد شعارات فقط ؟
الكلمات المفتاحية: صورة، المرأة، الخطاب.

مقدمة:

عرف موضوع المرأة تحولات وصفت بالكبيرة خصوصا عند الغرب، و ذات الأمر ينطبق على العرب بإعتبارها تابعة للرجل ،مما قلل من أهميتها ومكانتها في مجتمع ذكوري تحكمه الأعراف و التقاليد، و تبرز فيه صورة الرجل على حساب المرأة في حين أقرت الشرائع و الديانات السماوية بعكس ذلك ، حيث تعددت الأطروحات و تنوعت إلى حد التناقض منها من حصرها في الأمومة والتعليم مع إعتراض عملها خارج البيت ،ومنها من نظر إليها بتحرر نسبي مع بقاءها تحت وصاية الرجل، أما الحداثيون أقروا بتحررها و مساواتها مع الرجل في الحقوق والواجبات.فمعركة المرأة اليوم ليست مساوات مع الرجل بقدر ما هي تطالب بإشراكها في عملية التنمية الشاملة في المجتمع ،ما تمخض عنه ظهور تيارات مناصرة المرأة وتمثيلها في المحافل الدولية.من خلال هدا التقديم نطرح التسائل التالي: هل حققت المرأة مشروعها النهضوي أم بقيت إشكاليتها مجرد شعارات فقط ؟

1- صورة المرأة في الخطاب الغربي:

"هيجل "hegale في معرضه عن حديثه عن تطور روح الإنسانية كما عرض الأمر في كتابه (فينومولوجيا الروح) (phonomonology) يقول :أن الفكرة الأساسية هي الّتي تدعو إلى تطور النفس البشرية من خلال التناقض والصراع ...إذا كانت المرأة نقيضا للرجل، فهي بحق ذلك النقيض الذي لا يستطيع موجبه (الرجل) إستمرار ديمومة حياته وتطورها بغير السالب (المرأة) ،الرجل والمرأة من جنس الإنسان و هما يشتركان كلا واحدا لا انفصام بينهما، لقد عان كلا الطرفين على مختلف العصور في معرفة العلاقة الكائنة بينهما ،وقد يكون سبب هذه المعاناة إلى معرفة دور كل منهما في تطور علاقتهما و بالتالي في تطور المجتمع ككل .إن تقسيم العمل، وإلتزام الحدود الإجتماعية والإقتصادية والسياسية. لكل من الرجل و المرأة قد عين وحدد تاريخيا ،حسب الظروف الإقتصادية .ففي العصر الأمومي كان ينسب الأولاد إلى الأم و هو ما يعرف بعصر الصيد ،كان يتحتم على المرأة أن تبقى مع الأطفال ويذهب الرجل إلى الصيد إلا أن الأمر قد اختلف في عصر الزراعة والإستقرار أخذت مشاركة المرأة للرجل في كل مجالات الحياة[1].

وعند الحديث عن المرأة يتبادر إلى الذهن التمايز والتناقض والصراع، وقد سبق للفلسفة اليونانية الباكرة أن أصاغت خطابها حول المرأة والتمايز الجندري .**أفلاطون** الذي تعتبر أفكاره لغزا محيرا لا يقبل الحل لأنه يذهب من ناحية إلى أن جنس الأنثى خلق من أنفس الرجال الأشرار ،لكنه من ناحية أخرى يقترح تربية متساوية ودورا إجتماعيا واحدا للجنسين وهذا هو اللغز الأفلاطوني، يتفق مع التراث اليوناني الذي يكن كراهية شديدة للمرأة فهو يقول عن تربية الحراس:"إننا سنكون على حق لو جنبنا عظماء الرجال ذلك العويل والنحيب وتركناه للنساء.. في كتابه "الجمهورية" فهو ينبهنا إلى ضرورة إستبعاد العنصر النسائي من برامج التربية.

أفلاطون صنف النساء دائما في أحاديثه مع العبيد والأطفال و الأشرار والمخبولين من الرجال، أو مع الحيونات .الواقع أن أفلاطون كان يضع في ذهنه صورة الرجل كحارس مثالي للمدينة الفاضلة ومن ثم فلن تكون المساواة مقصودة لذاتها و إنها نتيجة منطقية لإلغاء الأسرة ولا علاقة لها بتحرير المرأة. أفلاطون بعد إلغائه للأسرة إحتار في أمر المرأة فأحالها إلى الرجل ،الأولى أنه ظل يكره خصائص الأنثى و يحتقرها طوال محاور "الجمهورية" والثانية أنه يشترط على المراة "المسترجلة" التي سوف يساويها بالرجل أن تتخلى عن كل ما يمت للأنثى بصلة والثانية أنه الملكية في محاوره "القوانين"عادة معها الأسرة و من ثم عادت المرأة إلى وضعها الطبيعي الذي فرضه عليها المجتمع الأثيني .

ما يقال عن أفلاطون يقال عن **أرسطو** أن الصورة التي رسمها أرسطو للمرأة بالغة الأهمية وذات أثر هائل ،بل إن كلمة المرأة فيما يبدو لا تدخل ضمن مفهوم "الإنسان "كما يتصوه أرسطو ، إن الرجل عند أرسطو هو الصورة و المرأة هي الهيولي ولهذا يقتصر دورها على إنجاب الأطفال ورعايتهم والإشراف على الأعمال المنزلية و آداء الواجبات نحو الزوج. **روسوا** يجعل من المرأة موضوعا جنسيا للرجل ولهذا فهي لا بد أن تكون مغوية ومثير في آن واحد معا مع السيطرة على رغباتها اللامحدودة ومن هنا جاءت دعوته للمرأة أن تكون جنسية محتشمة، أن تكون مرغوبة وعنيفة معا و على هذا الأساس يجعل روسوا السيطرة المطلقة للأزواج على زوجاتهم ،بحيث تنحصر النساء داخل جدران المنزل عقب الزواج مع الرغبة في فصل الجنسين وانعزالهما حتى داخل المنزل كما يقترح تربية أخلاقية للنساء في كتابه "إميل" هي الضد المباشر لما اقترحه في تربية أخلاقية للرجال وهكذا يتضح أن ما كتبه روسوا عن اللامساواة والتفاوت بين البشر ودعوته إلى المساواة كان يقصد بها المساواة بين الرجال فقط وكلامه في بداية كتابه "العقد الاجتماعي" عن أن الإنسان يولد حرا مع أنه يراه مكبلا بالإغلال هذا الحديث كله ينصب على الرجل دون المرأة.

لم يبدأ إنصاف المرأة إلاّ مع الفيلسوف (**جون ستيوات**) ميل الذي دعى إلى المساواة بين الرجل و المرأة في كتابه (مذهب المنفعة العامة). (الحرية...)ثم أفْرد كتاب خاصا لقصة المرأة (إستعباد النساء...) الذي أعلن فيه إدانته للمبدأ الذي ينظم العلاقة الإجتماعية قائمة بين الجنسين[2].**أغيست كونت Auguste Comte (1798- 1857)** أحد الّذين وضعوا نظرية في المرأة من خلال وضعه أسس لعلم الاجتماع في كتابه (نظام السياسة الوضعية) ،فقد تعرض لوضع المرأة وطبيعتها والقواعد والقوانين العامة التي تخصها داخل المجتمع لقد رأى (**كونت**):"في وضع المرأة جانب عقلي و فيزيائي أقل مما هو عليه الرجل ففي جميع أحوال القّوة سواء كانت قوة فيزيائية أو عقلية أو علمية فإنه من الملاحظ تفوق الرجل على المرأة في ذلك .."، و يرى (كونت) أن النساء تتفوق على الرجال في مجالات العواطف و الحب والأخلاق.

على المرأة لدى (كونت) أن لا يسمح لها بالعمل خارج منزلها ،ولا تملك شيئا ولا يحق لها ممارسة السياسة، إن طبيعتهن الرقيقة فيما يرى (كونت) يحتم على النساء المكوث في البيت لتربية الأولاد تربية خلقية وتقديم متطلبات الرجل من عاطفة وتهذيب وإحتياجات جنسية. لقد كان (كونت) ضد فكرة تحرير المرأة ويعتقد أن المساوات الجنسية تخل من وضع المرأة الإجتماعي والأخلاقي وسوف تخسر المرأة كل تنافس مع الرجل للحصول على المصادر الطبيعية.

كرّس **هربرت سبنسر (1810- 1903)** فصلا كاملا في كتابه (الإجتماع الإستتاتيكي) للدفاع عن المرأة وحقوقها القانونية والسياسية ،وقد إنتقد تسلط الرجال على الإيناث و إعتبرها نوع من البربرية ،والتي تتعارض من وجود الحب المتبادلين الجنسين.لم تأخذ فترة طويلة من الزمن حتى غير آرائه

تجاه المرأة في كتابه (قواد علم الاجتماع) لم يعد يكترث للمساواة بين الجنسين ولكنه أكّد على أنّ المساواة الجنسية شبه مستحيلة وأكد أن هناك بعض الإمتيازات التي يمتاز بها الرجل على المرأة وأكد على أن مكان المرأة الطبيعي أنها هو البيت ،وعارض تعلّم المرأة و إنخراطها في الحياة العلمية[3].

2- المرأة في الخطاب الماركسي:

لا بد من ملاحظة أن الماركسية على عكس الليبيرالية ،ترى أن الأولوية للمجتمع و أن الفرد هو جملة العلاقات الاجتماعية كلها . وتظم الكتابات التأسيسية للنظرية الماركسية كتابا بالغ الأهمية هو "**أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة** " (لفريديريك أنجلز) ولذا فإن طبقا للماركسية لا يمكن فصل النظال من أجل تحرير النساء عن النضال ضد الرأسمالية، لذلك أول خطوة تخطوها نساء الطبقة العاملة لدخول ساحة النضال هي نبذ عزلة البيت ودخولها المجال الإجتماعي متمثلا في الإنتاج .ويتتبع إنجلز في كتابه" **تراجع المجتمع الأمومي**" أنه :(وبقدر ما كانت الثروات تتنامى كانت من جهة تعطي الزوج في العائلة مركزا أهم من مركز الزوجة... إن إسقاط الحق الأمومي كان هزيمة تاريخية عالمية للجنس النسائي فقد أخرج الزوج دفة القيادة في البيت ،وحرمت الزوجة من مركزها المشرف وغدت عبدة رغائب زوجها وأمست أدات بسيطة لإنتاج الأولاد).

الماركسي البنيوي **بيير بورديو** الذي خصص واحد من كتبه (السيطرة الذكورية) مستخدما مفهومين هما الرأسمال الرمزي، والعنف الرمزي والذي ربط بينه وبين الهيمنة الذكورية ،حيث شاعت أنماط التفكير هي نفسها نتاج السيطرة التي تعطي تفسير للتفاوت بين المرأة والرجل بشروط الإنتاج الإقتصادي ...كاشفا عن البعد الرمزي للسيطرة الذكورية، رافضا إضفاء الطابع الإجتماعي على ما هو بيولوجي أو العكس.

يتجاهل التحليل الماركسي إدراج عمل المرأة المنزلي في الحساب الاقتصادي، وفي توليد فائض القيمة حيث تقوم المرأة بالعمل في المجال الخاص بالأسرة، فلا يكون عملها مرئيا بصورة ملموسة إلا من قبل أفراد الأسرة وهي لا تتقاضى عليه أجرا[4].

3- تيار مناصرة المرأة في بداية القرن التاسع عشر:

ظهر أولى حركات مناصرة قضية المرأة في القرن التاسع عشر في البلاد الغربية ، ينتمين إلى الطبقة المتوسطة، من النساء المتعلمات (أصل إجتماعي متواضع)، وفي نهاية القرن إنخرطت النساء الإشتراكيات في هياكل تنظيمية ورفضت كل تقارب مع الحركة البرجوازية، فإن الإستراتيجية كانتا مختلفتين الأولى يطالبن بالإصلاحات وأنه من الضروري خوض الصراع من أجل تحقيق المساوات بين جميع الناس، بينما النساء الإشتراكيات تطمحن للثورة والمطالبة بالمساواة على أساس الإختلاف في مجال الشغل

وخصوصا بالنسبة للأمهات الفكرة القائمة أنّ الأمومة: هي وظيفة إجتماعية. كان القاسم المشترك بينهن هو التأكيد على المساواة بين النساء والرجال ومحاربة كل أشكال التمييز التي تعاني منها النساء.

ويمكن إعتبار مؤتمر سينيكافولس Seneca Falls 1848 بمثابة شهادة ميلاد الحركة الأمريكية المناصرة لقضية المرأة ،لما ألغي الرق سنة 1865 ،حصل السود على الحق في التصويت. وهناك سمة هامّة ميزت تيار مناصرة قضية المرأة و هي التشكل المبكر للمنظمات دولية مثل المجلس الدولي للنساء سنة 1888 الدي كان هدفه الحصول على التصويت للنساء. كانت من أولوياتهم الحق في التعليم والتصويت ،كما أكدت على ذلك سيغولين ساموييي Ségoline Samowiller كارين جابر Kareen Jaber 2006 في كتابهما (الكتاب الأسود من وضع النساء) تطالب بقوانين لصالح الأمهات وتطوير حقوق النساء والزواج والإرث وإلغاء الدعارة.

أحرز تيار مناصرة قضية المرأة تقدما في البلدان الديمقراطية، فيما يخص ثلاث قضايا أساسية وهي: التعليم، وحماية الأمهات ،والحق في التصويت ،والترشّح. ومنحهنّ بعض بلدان شمال أوربا للنساء حقوقا في الزواج.فيما يخص الحق في التعليم، كانت أمية النساء إلى حدود القرن التاسع عشر في الغرب أكثر إنتشارا من أمية الرجال، ماعدا في العالم البروتستانتي كنّ يتلقين حدا أدنى من التعليم يتلاءم مع دورهن المقبل كأمهات، وزوجات ،وخادمات بيوت ،وكان هذا التعليم في أغلب الأحيان يقدم من طرف راهبات تحت المراقبة الصارمة لرجال الدين. وفي ظرف قرن حدث تطورات كبرى: التعليم الأولي ليشمل البنات، بدايات التعليم الثانوي، فقد نص قانون (فيكتور ديروي) Victor Duruy 1867 على إجبارية إحداث مدرسة للبنات في الجماعات المحلية.

كانت "ماري كيري "Marie Curie أولى إمرأة: أستاذة في جامعة السوريون 1906 ، وفي سنة 1919 صادق المكتب الدولي للشغل على إتفاقية واشطن التي تطالب بعطلة أمومة.

لقد تغير وضع النساء تغيرا عميقا في الغرب بفضل خوض نضالات سامية في جميع البلدان من طرف الليبراليين أو الديمقراطيين ،هدا يعني أن أي بلد يتفوق إذا علّم النساء ورخّص لهن بالعمل ،وحمى الأمهات[5].

4- صورة المرأة في الخطاب العربي:

إمتزجت صورة المرأة في الخطاب النهضوي العربي بالمرحلة العويصة التي كانت تعيشها الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر، فتضاربت هذه الصورة طبقا لتضارب تلك المواقف السياسية ،والإديولوجية ،وكان لكل تبريراته حسب الانتماء الثقافي ،والفكري ،والإيديولوجي[6] ،وحسب المصالح وعدمها مع النموذج الغربي ،كل هذه الأحداث حركت المنطقة العربية و وضعت البذور الأولى لتغيرات

شاملة فيما بعد ،ومن هذه الأحداث الحملة الفرنسية على مصر، واستئثار محمد علي باشا بحكم مصر وتحقيق نهضة شاملة فيها.عامل آخر حدث في بلاد الشام هو محاولة التدخل الأروبي في شؤونها تحت مختلف الذرائع و حماية الأقليات أو المصالح الدينية، كذلك قدوم الإرساليات و إدخال المطابع وإصدار الصحف ...، نقل النهضة الأروبية والدعوة لتمثيلها كلها شرارات ساهمت في إشعال حركة النهضة العربية .

نادى رواد النهضة الأوائل بالتجديد اللغوي والديني وبالنهوض القومي، نادوا بموقف جديد في المرأة برفع الحيف عنها بعد أن تردت أحوالها وانحطت لدرجة زادت كثيرا من انحطاط المجتمع و مستقبل الأمة ومصيرها ،وكان مجرد الخوض في مبدأ المساوات بين المرأة والرجل يعتبر شذوذا عن رأي الجماعة ،وربما فسقا وكفرا. فإن شعار التعليم الذي نراه بديهيا الآن كان هدفا ساميا و مطلبا كبيرا يحتاج لنضال ،وخاصة أنه كان أمرا مستنكرا من خلال قيم وتقاليد المجتمع ،ومثله السماح للمرأة بالعمل والاختلاط و طرح الحجاب جانبا[7]...

هكذا أصبحت المرأة تجسيدا للأفكار التنويرية الكبرى التي ارتكزت على القيم الإنسانية من مساوات وعدالة وحرية فتحدث المصلحون عن المساوات بينها وبين الرجل وتحريرها ومعاملتها بأكثر عدالة ممكنة. إلا أنهم لم يخصوا الإعتناء بشخصيتها والإهتمام بها لذواتها إلا ناذرا ،بل فضّلوا التركيز على المرأة الوسيلة لا الغاية لتلبية مصالح العائلة والوطن وبرز تياران نهضويان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مجال حقوق المرأة[8].

5- المرأة في الخطاب الليبيرالي :

إن الفلسفة الليبيرالية التي بنيت على أولوية الفرد على المجتمع وحريته التي لا يجوز أن تحدها حدود في تكوين الثروة والتملك وساوت نظريا بين الرجل و المرأة[9] .حيث فرق المصلحون الليبيراليون الّذين تشبعوا بمبادئ الثورة الفرنسية بين وجهي الغرب المستعمر والمتمدن ،وذلك بعد ظهور النوايا الإستعمارية خاصة فوصفوا اضطهاده لشعوبهم وتبين لهم أنه لا يمكن التصدي له إلاّ بتغير الأحوال على منوال هذا الغرب ،فدخلت المرأة ضمن صورة هذا النضال ضد الاستعمار حتى أنّ **الطاهر الحداد** جعل الزواج بالأجنبيات مشروعا إستعماريا. **رفاعة رافع الطهطاوي** الذي انتبه مبكرا لأهمية دور المرأة في النهضة بشكل عام للظلم الواقع عليها ،رأى الطهطاوي أنّ الخطوة الأولى في مجال قضية المرأة هو تعليمها القراءة والكتابة والحساب والقواعد، ليساعد على رفع مستوى وعيها وثقافتها ،والخطوة الثانية إنهاء عزلة المرأة المنزلية والسماح لها بالعمل و الاختلاط مع الرجال خاصة المتعلمة . صدر عام1873 كتابه الشهير (المرشد الأمين في تربية البنات والبنين) بادر فيه بالدعوة إلى تلقين الفتيات تكوينا مدرسيا ملائما. **خير**

الدين التونسي كانت آراءه في إصلاح حال المرأة لا تتجاوز ضرورة تزويدها بتعليم أولي يساعدها في أن تصبح ربة بيت نموذج لأطفالها. **أحمد فارس الشدياق** طالب بجعل حال المرأة أكثر إنسانية وسلط الضوء على التفاوت بين المرأة الغربية والشرقية وإعتبر أن المجتمع الغربي ثابتا لإعتماده على ركيزتين الرجل و المرأة ، والمجتمع الشرقي أعرج يتعثر في انطلاقته لأن جهل المرأة مستثار فيه. **بطرس البستاني** رأى أن المرأة ليست للعزلة وإن تأخرها جاء من حرمانها من المعرفة وإن إصلاح العالم يبدأ بإصلاح المرأة و طالب بتعليمها أصول الدين وحذّرها من التعالي على الرجل.**فرنسيس مراش** كان أكثر حذرا تجاه نهضة المرأة فقد طالب أن يقتصر تعليمها القراءة والكتابة والحساب فالدّراسة المعمّقة للعلوم ستوقظ فيها الميل إلى الحرية والرغبة في الإقتداء بالرجل فتُهمل واجباتها وأطفالها ، وربما يعني لها أن تضع نفسها فوق الرجل.**فرح أنطوان** رأى أن إصلاح الهيئة الإجتماعية لا يتم إلا بإصلاح النساء فالمرأة برأيه خلقت لتكون زوجة وأما وتقوم المنازل بنظام سلطة الرجل على المرأة لأنه مدير المنزل[10].

إن أقصى ما طالب به التنويريون الليبيراليون في القرن التاسع عشر لا يتجاوز تعليم المرأة و تربيتها ،وروى أن هذا الأمر ضروري لتطور المجتمع وأنه يكفيها .ففي المجتمع الإستبدادي الشرقي والحكم الإقطاعي والتخلف الإجتماعي والثقافي ، والإنحطاط الفكري وإستلاب المرأة كليا إنسانا وحقوقا كانت مثل هذه الأفكار أفكار تنويرية خطوة كبيرة في مجال المطالبة بحقوق المرأة و تحررها.

نادى التيار التنويري الثاني ذو المرجعية الدينية الإسلامية بفهم جديد للدّين يزيل عنه ما علق به من زيف وتزوير وأساطير و بدع ليستطيع أن يكون صالحا لكل زمان ومكان ،وعملوا على إعادة حق الإجتهاد و التأويل في ضوء المنهج العلمي و الأدوات المعرفية ،و طالبوا بموقف جديد وتشريعات جديدة من شأنها أن ترفع شأن المرأة و تنصفها وتتيح لها الظروف المناسبة لتقوم بدورها الطبيعي في الأسرة والمجتمع.

6- المرأة في مطلع القرن العشرين:

رأت الرائدات الأوليات أن أفضل سلاح لإعلان كلمة المرأة و إسماع صوتها هي المجلات النسائية ،وتحقق الحلم مع (هند نوفل) بإطلاق أول رصاصة في معركة تحرير المرأة فجاءت مجلة "الفتاة" لتكون منبرا تدعوا من خلاله إلى تخليص المرأة من قيود الجهل[11] .لم تكن الحركة النسائية موجودة في القرن التاسع عشر في أي بلاد من البلدان العربية، إنما وجدت نساء يعملن في الأدب والصحافة والثقافة ،وحاولن منفردات الكتابة عن ضرورة تعلم المرأة ،وتربيتها وتشجيعها على المشاركة في بعض قضايا المجتمع.**عائشة تيمور** من النساء الرائدات اللّواتي نشرت مقالا في الصحف تعاطفت في كتاباتها مع المرأة دون أن تتبنى قضيتها مثلما فعلت **ماريانا مراشاول** سورية كتبت في الصحافة نادت بتعليم البنات وتشجيعهن على الكتابة. كما أشارت الباحثة **ملك حفني ناصف** التي إشتغلت بالتعليم فألفت كتابين عن المرأة

"النسائيات ""حقوق المرأة".**لبيبة هاشم صحفية** أصدرت مجلة "فتاة الشرق" ركزت على قضية المرأة وتربيتها كما ساهمت في نشر الوعي تجاه المرأة. **عائشة عبد الرحمان، هدى الشعراوي، فاطمة نعمت**،...لم تكن الحركة النسائية المصرية الوحيدة في البلاد العربية بل نهضت حركات نسائية في مشرق ومغرب البلاد العربية.

في تونس منوبية الورتاني ،حبيبة المنشاري و عادلة بيهم في الجزائر و في لبنان نظيرة زين الدين[12] .

7- المرأة في الخطاب الإسلامي:

أخذت مكانة المرأة تتراجع فتفقد الكثير من حقوقها أمام الرجل ،ولقيام الجاهلية على العرف دون القانون كانت العلاقة بين الرجل والمرأة عشوائية وخاضعة لتقلبات المزاج ومقدرة كل منهما في أي ظرف. لكن المرأة الجاهلية حافظت على حريتها الشخصية ولم تخضع لقيود تحد من نشاطها الإجتماعي أو تلزمها بالحجاب أو ملازمة المنزل. إن خطوة كهذه تفقد فيها المرأة حريته، سوف تترتب على نضج النظام الأبوي الذكوري وإكتمال مقوماته السياسية والإجتماعية [13].

تقول "ليلى الصباغ" في دراستها عن المرأة في التاريخ العربي أن المجتمع العربي في العصر الجاهلي ،وإن كانت طبيعته بدوية صحراوية فقد عرف فيه مشاركة المرأة في الأعمال الزراعية أي أن المرأة في هذا العصر كان لها مركزا تتمتع به خاصة في أمور الاقتصاد والتجارة وخير مثال على ذلك خديجة زوجة الرسول (ص) وقبلها "بلقيس" قد تسلمت تقاليد الحكم في اليمن[14]. جاء القرآن الكريم إلى هذه البلاد العربية كما جاء إلى بلاد العالم بحقوق مشروعة للمرأة لم يسبق إليها من دستور شريعة أو دستور دين وأكثر من ذلك، بل بنى حجته على قواعد اجتماعية ، إنه رفعها من المهانة إلى مكانة الإنسان المعدود من ذرية آدم وحواء، وأعظم من جميع الحقوق الشرعية التي اكتسبتها المرأة في القرآن الكريم لأوّل مرة أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية ، و وصمة الجسد المرذول، فكل من الزوجين قد وسوس له الشيطان واستحق الغفران بالتوبة والندم:"فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَ فِيهِ". "فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا".

إن لفظ الإنسان هو من أكبر الألفاظ تكرارا في القرآن الكريم، إلا أنّ وضع المرأة ومكانتها وحقوقها في النص المؤسسي جاءت متناقصة وتراوحت بين المساواة بين الرجل والمرأة من حيث كونها خلقا من نفس واحدة، وبين وضع المرأة في مكانة أدنى. وكان السبب لتدني هذه المكانة هو جسدها ووظائفها البيولوجية أي اختلافها الفزيولوجي عن الرجل، وهو الاختلاف الذي فند له الفقه وعلوم التفسير على أساس أن الاختلاف لا يمكن أن يلد المساواة، والإنسان هو الرجل.وقد حرص المفكرون المستشرقون والتقدميون الذين تعاملوا مع الدين باعتباره واقعة تاريخية على أن يفصلوا بين ألوهية النص وتاريخية التلقي ،حتى يكون

بوسعهم أن يطوروا تأويلهم وقراءاتهم للقرآن الكريم للصالح قضية تحرير المرأة،ومع ذلك بقى الفكر الديني التقليدي مسيطرا على الساحة وكان نصيب المجددين هو الطرد من الجامعات أو القتل أو النفي خارج الوطن، مثلا مصير كلا من "الطاهر لحداد" من تونس الذي طرد من جامعة الزيتونة بسبب كتابه "إمرأتنا في الشريعة والمجتمع" ،ومصير "محمود محمد طه" في السودان الذي حكم وأعدم وكان قد دعا النساء لرفض أي تسلط عليهن بإسم الدّين،ومصير "نصر حامد أبوزيد" من مصر أنه قال بالمساواة بين الذكر والأنثى في الميراث على أساس من التأويل التقدمي للنص والقراءة التاريخية له وتتبع حركته الداخلية،وفي كتابه (**دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة**) يقول "الخطاب المنتج حول المرأة في العالم العربي المعاصر خطاب في مجمله طائفي عنصري بمعنى أنّه يتحدث عن مطلق (المرأة الأنثى) ويصنعها في مقارنة مع مطلق الرجل (الذكر)[15].

ترتب على النزعة المحافظة والتأويل للنصوص مجموعة من الممارسات الاجتماعية والقانونية المعادية للمرأة بإسم الإسلام، ومنع المرأة من السفر إلا بموافقة الزوج، منع الإختلاط في المدارس والجامعات أو رفض مَنْح الجنسية للأطفال والأم المتزوجة من أجنبي على أساس أن الجنسية هي حق الدم والدم هو للأب.

وعلى الأساس من الدين تحفضت الأغلبية العظمى من البلدان العربية الإسلامية على مجموعة من مواد الاتفاقية الدولية لإلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة، وهي الاتفاقية التي تجسد رؤية إنسانية شاملة للمساواة الكاملة بين الجنسين على أساس من إنسانيتها ذاتها.لقد رفع الله مكانة المرأة إلى المنزلة السامية ليوكل إليها أشرف منازل الحياة لأنها أستاذة في التربية والتنشئة والتعليم والتوجيه، لذلك فهي ليست بالمخلوق الضعيف ، لقد احتملت على مر العصور الكثير من عنية الأيام وظلم الأهل والعشيرة وتكبر الرجل وتجبّره، ومشقت الحمل والوضع وسهر الليالي بجوار الطفل لذلك فهي دعامة الكون الذي لا يزال ناهضا قويا [16].

8- صورة المرأة في الخطاب المسيحي:

في المسيحية جاءت عملية خلق المرأة كتابع للرجل من حيث أن خلقها جاء متأخرا بعد أن خلق الرجل لكي تقوم المرأة على خدمته. بل وجرى إلغاء اللوم على حواء التي استسلمت أولا لغواية الحية في خروج البشرية من الحية والذي تفسيره لقرون عديدة على أنه ليس لحرمان المرأة من القيام بالوعظ وتولي المناصب الكنيسية...،وظل جسد المرأة هو أحد أسباب دونيتها وقد سبب عذرية السيدة "مريم" مشكلات كثيرة حيث رأت بعض الكتابات النسويات في هذه العذرية والإعلاء من شأنها في العهد الجديد دلالة على إدانة الحس الجنسي لدى المرأة، وفي محاولة لرصد القسمات المشتركة بين الخطابين الإسلامي والمسيحي

اتجاه المرأة والاختلافات بينهما فأمكن الباحثتان المصريتان "دفيفيان فؤاد" والأستاذة: "نادية رفعت" بإجراء بحث حول:"صورة المرأة في الخطابين الفقهي الإسلامي والآهوتي المسيحي المعاصرين": ترى الدراسة أن الخطاب الإسلامي يُبرز وضع المرأة في مطلع الدعوة ،ويتهم عصور الانحطاط بمسؤوليتها عن الممارسات والأعراق الظالمة للمرأة ،وذلك على العكس من زمن النبوة الذي شهدت فيه المرأة أياما ذهبية.ولكن الخطابين يبرران التفاوت بين الرجل والمرأة على المستوى الاجتماعي والدنيوي في الحقوق والواجبات والأدوار بناءا على الطبيعة النفسية والجسمية والغريزية لكل من الجنسين.

ويؤكد الخطاب الإسلامي على ضرورة الحجاب ومشروعية تعدد الزوجات باعتبارها أفضل من الزنا، أما عمل المرأة فهو للضرورة فقط وفي بعض المهن والحرف وليس كلها لأن خروج المرأة في الشوارع مثير للغرائز في الناس ومفسد للمجتمع.

وبالإضافة فقد عزز هذا الخطاب الديني التقليدي المحافظ من القيم التي تغرسها التنشئة الاجتماعية في الأسرة حول النمطية للرجل والمرأة.

الخاتمة :

إذا كانت قضية المرأة في جوهرها قضية إنسانية إجتماعية فمعنى هذا أنها قضية لاتنفصل عن قضية الرجل، ففي النهاية تبقى قضية المرأة هي قضية موقف الإنسان من الإنسان من خلال علاقة المرأة ك (هامش) محتقر ب (المتن) الإجتماعي الذكوري الذي يحظى بكل تقدير وإحترام[17] .فقضية المرأة جزء جوهري أصيل في قضية الوجود الإجتماعي للإنسان ضمن واقعه التاريخي الذي يحدد علاقاته و التي تعبر عن شروط علاقة الإنتاج ووضعية المرأة والرجل معا، وعليه فتحرير المرأة في ممارستها الطبيعية والإنسانية لا يفارق تحرر الرجل وأن التحرر الإنساني مرهون بسياق التحرر الإجتماعي والفكري وذلك عندما تتوجه حركة المجتمع تجاه التقدم والنماء.

الإحالات و الهوامش:

1- أحمد جمال طاهر، المرأة في دول الخليج العربي دراسة ميدانية، منشورات دار السلاسل، (الكويت)، ص15.

2- سوزان موللراوكين النساء في الفكر السياسي الغربي، ترجمة إمام عبد الفتاح، لبنان، ط 1،2009، ص 9– 10.

3- أحمد جمال طاهر، مرجع سابق، ص35– 36.

4- نادية مصطفى، الأمة الإسلامية في عصر العولمة: المرأة و تحولات عصر جديد، واقع ندوة دار الفكر في أسبوعها الثقافي الثالث، دار الفكر (دمشق)، 2001، ص 370– 372.

5- إليزبيت كريميو، وضعية المرأة في العالم ، ترجمة حنان قصي ومحمد الهلالي، دار توبقال للنشر (المغرب)، ط1،2015،ص 61– 69.

6- منجية عرفة منسية آداب النهضة وإزدواجية الخطاب حول المرأة، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، (الرباط) ط1، 1997 ، ص26.

7- حسن عويدات، المرأة العربية في الدين والمجتمع عرض تاريخي، الأهالي للطباعة والنشر، ط1، 1996،ص 118.

8- منجة عرفة منسية، مرجع سابق، ص 29.

9- هيفاء فوزي الكبرة،المرأة و تحولات الإقتصادية والإجتماعية، دراسة ميدانية لواقع المرأة العاملة في سوريا، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط 1،1987، ص385.

10- حسن عويدات، مرجع سابق، ص120– 125.

11- إسماعيل ابراهيم، صحفيات ثائرات، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة)، ط1، 1997، ص 22.

12- حسن عويدات، مرجع سابق، ص 139– 146.

13- هادي العلوي، فصول عن المرأة، دار الكنوز الأدبية، ص 74.

14- أحمد جمال طاهر، مرجع سابق،ص18.

15- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي،(الدار البيضاء)، ط3، 2004، ص 29.

16- منصور الرفاعي عبيد، المرأة ماضيها وحاضرها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 2000، ص09.

17- سالمة الموشي، الحريم الثقافي بين الثابت والمتحوّل، دار نينوي للدراسات والنشر، (دمشق)، ط2، 2011، ص11.